إبليس يعلّم ... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : ودار البيتُ الثالث وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمت حلقتهم ؛ فقام رجل من عُرض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الامام أحمد ابن حنبل (٢) كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان ، حفظنا منها قوله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدُكم بعيره في سفره . وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطان الكافر دَهِينٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزول أشعثُ أغبرُ عارٍ . فهل يأكل الشيطان ويدّهن ويلبس ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرى ويتشعّث ويغبر ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فان إبليس إذا أراد أن يسخر من العالم ويُسمعه طرَه وتهكمه (٣) حرّك من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كأنما يقول له تنبّه ويحك على معناي فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورة من الرد عليّ ، ولكني حقيقة من الرد عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضرب عنقَ عدوه بمائة اسم وضعت للسيف . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة ابن عُقْبة الكوفي المحدّث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد ابن حنبل (٤) ؛ وهو الرجل الصالح العابد الذي كان يقال له (راهب الكوفة) من زهده وعبادته واحتباس نفسه في داخله كأنما جسده جدار بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظن الشيطان بهذا الخبر ، فان أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماء المواقع التي تهزم فيها الجيوش ، وما الرجل العابد إلا صاحب المعمَعات مع الشيطان ، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض ؛ فالناس يحسبونه قد تخلى من الدنيا ويظنون الترك أيسر شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه في نظام آخر غير نظام أعصابه ولا أشق من ذلك على النفس ؛ ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف ؛ ولو أن ملكا عظيما نصب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزَتْ له جوانب الأرض لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصة بن عُقبة كثير الفكر في الشيطان يود لو رآه وناله الكلامَ ، وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودُها فيه ويفسر معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليس في الأصل ملَكا من الملائكة وتحوّل عن طبيعته حين خلق آدم عليه السلام ، أي وجد في الكون روحُ الخطأ حين وجد فيه الروحُ الذي سيخطىء . فلما هبط آدم من الجنة وحُرمها هو وزوجُه وذُريته كان إبليس لعنه الله هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكأن هذه الآدمية أُخرجت من الجنة وأُخرجت معها قوة لا تزال تصدُّها عنها ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدل الالهي ، لم يعرف آدم حق الجنة فموقب ألا يأخذها إلا بحقها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته ، ثم هوّم فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكون العينُ نائمةً والعقل لا يزال منتبهاً ، فكأن العينَ متراجمةٌ تبصر من تحت أجفانها بصراً يشاركها فيه العقل . فرأى شيخُنا أبو عامر صورة ابليس جاءه في زيّ رجل زاهد حسن السَّمْت طيب الريح نظيف الهيئة ، وكاد يشبّهه عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه فان عيني الكاذب تصدقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدميٌّ قَصُر فجعل عينيه كالعلامات لمن خاض العلاة

وظهر الشيطان زاهداً عابداً تقياً كأنه دين صحيح خلق بَشَراً فصرخ به أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمعصية في ثوب الطاعة ؟

---

(١) داعبنا إبليس لعنه الله مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال وسنقتص للقراء حكايته إن شاء الله

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ وكان من حفاظ (بلخ)

(٣) الطنز التهزؤ والتهكم ولعل منه كلمه (بلطز) عند العامة

(٤) توفي سنة ٢١٥

قال ابليس : يا أبا عامر ! ولم تقل المعصية إنها طاعة لم يقارفها أحد . وهل خلقت الشهوات فى نفس الانسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصى من النفس ، وجعل كل منها طاعة لشىء ما ؟ فتقع المعصية بأنها طاعة لا بأنها معصية . أولا ترى يا أبا عامر أن الحيلة محكمة فى الداخل من الجسم أكثر مما هى محكمة فى الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطن بهذا المعنى وهذا العمل لما كان لظاهر الوجود كله فى الانسان معنى ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموت قد خلق إلا ردا عليك أنت ليتبين الناسُ أنك المتلىُّ المتلىُّ ولكنك الفارغ الفارغ ؛ بل كل شهواتك سخرية بك وردّ عليك ، فلا طعم للذة من لذاتك إلا وهى تموت ، وإنما تمامُ وجودها ساعة تنقضى ؛ ومتى قالت اللذة قد انتهيت ، فقد وصفت نفسها أبلغ الوصف

قال إبليس : يا أبا عامر ولكن اللذة لا تموت حتى تلد ما يبقيها حية ، فهى تلد الحنينَ اليها وهو لا يسكن حتى يعود للذة تنقضى وتلد

قال الشيخ : معانى التراب ، معانى التراب ؛ كل نبتة فيها بذرتها . ولكن عليك لعنة الله لماذا حدثتنى فى هذه الصورة ؟

قال ابليس : لأنى لا ألبس إلا محبةَ القلب الآدمى ، ولولا ذلك لطردتنى القلوب كلها وبطل عملى فيها ؛ وهل عملى إلا التلبيس والتزوير ؟ أتدرى يا أباعامر أنى لا أعترى الحيوان قط ؟

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر الى الشىء إلا نظرةً واحدة هى نظره وفهمه معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ؟ تنزّل على كل أفّاك أثيم » فأنت أيها الشيطان التزوير ، والتزوير موضعه الكذب . فمن لم يكذب فى الفكر ولا فى النظر ولا فى الفهم ولا فى الرجاء فليس لك عنده عمل

قال ابليس : يا أبا عامر ! وهل ترى رحمك الله أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد والعبّاد هو فى جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة فى كل شىء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك ؛ إن الحيوان شىء واحد فهو طبيعة مسخّرة بنظامها ، ولكن الانسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فألوهيته أن يُقرّ النظامَ بين هذه المتناقضات كأنها امتُحن فأعطىَ من جسمه كونا فيه عناصرُ الاضطراب وعناصر الاضطراب ثم قيل له دبّره

فضحك إبليس . قال الشيخ : م ضحكت لعنك الله ؟

قال : ضحكت من أنك أعلمتنى حقيقة الابليسية ، فالزهاد الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة

قال الشيخ : عليك لعنة الله فما هى تلك الحقيقة التى زعمت

قال إبليس : والله يا أبا عامر ما غلا انسان فى زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هى الابليسية ؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل انها ألوهية تقر النظام بين متناقضات الانسان ومتناقضات الطبيعة

قال الشيخ : وتسخر منى لعنك الله ؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة ؟

قال إبليس : أولم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدرُ من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلّمها ؟

قال : عليك لعنة الله فما هى حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر هى التى أعجزتنى فى نبيكم

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم فما هى ؟

قال إبليس : هى ثلاث بها نظام النفس ونظام العالم ونظام اللذات والشهوات : أن تكون لك تقوى ، ثم يكون لك فى من هذه التقوى ، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا التفكير ما اجتمعت هذه الثلاث فى إنسان إلا قهر الدنيا وقهر إبليس

فان كانت التقوى وحدها كتقوى أكثر الزهاد والرهبان فما أيسر أن أجعل النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلاهة والفضائل الكاذبة ؛ وإن كان الفكر وحده كفكر العلماء والشعراء فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيغ والالحاد والبهيمية والرذائل الصريحة

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فاذا هم مُبصرون »

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرنى والله أن أفسّر لك هذه قارورة من الصّفْر لا تصبغ البحر ، وأما أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع فى الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ومائة ألف رجل فاسق ومائة ألف مخلوق ظالم ، ثم أملأ صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الانسانى

الزاهد والمصلح مادام المصلح شيئاً غير السيف ، ومادام الزاهد شيئاً غير الحاكم

قال الشيخ : لعنك الله من شيطان عارم ، فاذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد فهل هذه إلا طريقة شيطانية لافساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر كل واحدة تحسب جسمها . . .

فصرخ الشيخ : أغربْ عني عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عامر . لقد لقيتُ المسيح وجربته وهو كان تفسيرها

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف لقيتَ ؟ وكيف صنع ؟

قال إبليس : ألقيتُ به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه ولا يظن أنه يجد ولا يرجو أن يظن ؛ ثم قلت له : إن كنت روحَ الله وكلمته كما تزعم فمر هذا الحجر ينقلب خبزا . فكان تقيا فتذكر فاذا هو مبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحوّل ، لأن الموت إتمامُ حقيقته السامية فوق هذه الدنيا ، ولو مُلئت له الدنيا خبزا وهو جائع لم يتحول ، لأنه بصر ا من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا بل بمان أخرى هي إشباعُ حقيقته السماوية التي لا شهوة لها

ثم ارتقيت به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين كشفتها كلَّها لعينيه وقلت له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لي . فكان متقيا فذكر فاذا هو مبصر : أبصر حقيقة الخيال الذي جسَّمتُه له وعلم أن الشيطان يعطي مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يعطيها في ساعة لذة ، كما يعطيها في شفاء غيظ بالقتل والأذى ، ثم لا يبقى من كل ذلك باق غير الاثم ، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت له ، فهي خيال في جرعة الحياة كما هي خيال في جرعة الخمر

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر الذي وراءه التذكر الذي وراءه التقوى التي وراءها الله ، هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر وآخر وجودها التلاشي

فالبصر الكاشف الذي يجرد الأشياء من سحرها الوهمي ، هذا هو كل السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر هذا سؤال شيطاني . . . ترد ويحك أن تحتال على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك . ليس الايمان هو الاعتقاد ولا العمل ، ولو كان من هذين لما شقَّ على أحد ولصلحت الدنيا وأهلها . إنما الايمان وضعُ يقين خفيّ يكون مع الغريزة في مقرها ، ويصلح أن يكون في مقرها لتصدر عنه أعمالُ الغريزة . وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبر من الدنيا فيرجع إليه الانسان فيتذكر فيُبصر . هناك ميراث من الآخرة للمؤمن ، فاليقين بهذا الميراث هو سر الايمان

والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين ومعارضة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر للمغفل مغايرة كما تُشب نار أكبر من قرص الشمس ثم يقال للأبله انظر بعينيك فيصدق أنها أكبر من الشمس

ومتى صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر منه في النفس ، فأيسر أسباب الحياة حينئذ يفسد المتقدَ ويسقط الفضيلة ، وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ

أما إذا ثبت اليقين فالشيطان مع الانسان يصغر ثم يصغر ، ويعجز ثم يعجز ، حتى ليرجع مثل الدرهم إذا طمع الطامع أن يجعل الرجل الغني الكثير المال لصاً من اللصوص بهذا الدرهم

قال الشيخ : لعنك الله ! فان لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر إن لم أستطع إفساد اليقين زدته يقيناً فيفسد ، واستحسان الرجل لأعماله السامية قد يكون هو أول أعماله السافلة . وبأي عجيب يكون الشيطان شيطانا إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ فمد يده فأخذ فيها عنق إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عصره عصراً شديداً يريد خنقه فقهقه الشيطان ساخرا منه . ويقظه الشيخ فاذا هو يشد بيده اليمنى على يده اليسرى . . . .

(لخطا)

مصطفى صادق الرافعي